حوار مع المفكر برهان غليون عن الثقافة وسورية والمعارضة:

الضغوط الأمريكية على سورية أضرت بآمال التقدم والتحرر لأنها ارتبطت بأجندة الاستعمار وعلاقات الهيمنة

المعارضة السورية ضعيفة.. وثلاثة أرباع الشعب في المعارضة دون تنظيم.. والنخبة السياسية تريد الشعب شحاذا

حاورته: فاطمة عطفة

هذا لقاء تم في مدينة أبو ظبي مع الدكتور برهان غليون، وفيه اضاءة او اضاءات على الكثير من القضايا الفكرية الساخنة التي تشغل بال المثقفين في العالم العربي. وغليون يتمتع بمكانة فكرية ونضالية متميزة، وله حضوره الفعال في المنتديات العالمية. وهو أستاذ علم الاجتماع السياسي ومدير مركز دراسات الشرق المعاصر في جامعة السوربون في باريس. وله العديد من المؤلفات، من أهمها بالعربية: «اغتيال العقل»، «بيان من أجل الديمقراطية»، «المسألة الطائفية» و «مشكلة الأقليات».

«القدس العربي»

■ البداية: الاغتراب بعيدا عن سورية، المزايا التي حصلت عليها من جراء هذا السفر سواء في المجال الأكاديمي في باريس أو الحضور الفاعل في المنتديات العالمية مقارنة مع زملائك في الدراسة الذين بقوا في سورية؟

● أهم شيء أن الإقامة في الخارج تتيح للإنسان أن يعيش في مناخ إنساني حر.. بمعنى ألا تكون الضغوط اليومية، والضغوط التي لا علاقة لها بالمشاكل التي يفكر فيها، هي التي تحدد سلوكه، أي أن يعيش الإنسان في مناخ طبيعي، وليس مناخا مليئا بالضغوط والإكراهات والحساسيات والمراقبات. بصرف النظر عن الظروف السياسية، نحن مجتمع مراقبة، مجتمع ضغط على الفرد وتقيد حريته، ويُطلب من الفرد أن يتأقلم أكثر ما يمكن مع الجماعة، وبالتالي: نحن أيضا مجتمع تقليدي ومحافظ من ناحية العلاقات بين الأفراد، حتى على مستوى السلوك والقيم التي تتغير بسرعة، ولكن لا يزال هناك علاقات كثيرة محافظة، لأن مجتمعاتنا بسيطة نسبياً على مستوى التكون الطبقي، وهي تختلف عن المجتمعات الصناعية. أما الاغتراب فقد أعطاني الحرية الفردية، والمسؤولية ومناخ الشعور بهذه المسؤولية. وفي هذا المناخ يكون عند الإنسان قدرة على أن يبذل جهده للقضية التي يعمل من أجلها، ولا يكون ثلاثة أرباع شغله مكرسا لشيء آخر حتى يؤمن ظروف معيشته. هناك تكون ظروفه آمنة وهو موجود بشكل طبيعي وقادر أن يعمل ما يشاء. أما السلبيات في البعد عن الوطن، فأنا أقول إنه صعب، ولكني كنت دائما قريبا ومنخرطا في قضايا شعبي وهموم أمتي.

أنا من الناس الذين أرهقهم الشعور السياسي، وكنت ملتزما بالثقافة وبالمجتمع. أنا من الذين راحوا إلى أوروبا على أساس أن يرجعوا ويشتغلوا في تغيير المجتمع، مثل كل الأجيال من المثقفين العرب. أول ما يصير الواحد يقرأ ويفكر يشعر بأنه وقع على كاهله العمل على تغيير المجتمعات وتحديثها وتطويرها، ولكن ظل المجتمع ـ ليس السوري فقط ـ بل المجتمع العربي وهو ساكن وكأنما لا يعنيه تفكيرنا. كل فترة الدراسة كانت مركزة أيضا، دون أن نشعر، على تحليل وتفكيك المجتمع العربي، وإعادة تركيبه على أسس جديدة. فنحن نعيش في العالم العربي حتى لو كنا نقيم على الأرض الأوروبية، لقد بقينا نعيش فيه فكريا ونفسيا أيضا، هذا كان يخفف عنا الشعور بأننا منفيون، وإن لم يوجد هذا الشعور عندي، بل كنت أشعر أني في بلد ثان وهمومي ما زالت نفسها وعلاقتي مع الوطن ما زالت على الرغم من مرور ست وعشرين سنة لم أعد إلى البلد إلا في زيارات قليلة جدا وقصيرة. هذا طبعا هو الشيء السلبي الذي تمثل في عدم رؤيتي الأهل، عدم رؤيتي الأصدقاء، وعدم التواصل مع الناس الذين عشت معهم في البداية، والناس الذين تربيت معهم.

وفي مجال العمل أيضا، نحن في أوروبا صرنا ننظر ونشتغل في الثقافة، بينما كانت نشأتنا وشبابنا في السياسة، وهمنا السياسي كان كبيرا. الحقيقة أننا دخلنا في الفكر وانشغلنا بالثقافة من خلال السياسة، وهذا يعني تمردا على الوضع الاجتماعي، وتمردا على النظام التقليدي القائم، وكانت الممارسة السياسية في تصورنا. ولكن في أوروبا تعلمنا أن نعيد التفكير بشكل أساسي في سلوكنا، في تفكيرنا في التغيير، وأن نطور أيضا رؤيتنا للتغيير، كانت تلك خطوات مفيدة أيضا في هذا السياق.

لماذا لا يؤثر المفكر على السياسة

■ أكثر المفكرين في الغرب أو في أمريكا يكون لهم تأثير كبير في السياسات القائمة في بلادهم، وقد لاحظت في الملتقى الأخير أن وزير الدفاع الأمريكي السابق عرض أفكارا وشواهد من أعمال المفكرين والأدباء في بلاده. أنت مفكر عربي صدرت لك كتب عديدة في الثقافة وعلم الاجتماع.. سؤالي: لماذا تظل مؤسساتنا السياسية غير قادرة على أن تستفيد من أي كتاب عربي؟.. أقصد عدم تأثير المفكرين العرب في بنية وتفعيل السياسة والتغيير الاجتماعي.. لأن المفكر العربي بقي بعيدا أو معزولا إلى حد كبير عن السياسة؟

● الحقيقة أن التحولات في الوطن العربي وبشكل عام، منذ الخمسينيات من القرن الماضي، حصلت بشكل يمكن أن نسميه مصادرة للسياسة والثقافة. مجموعة صعدت على ظهور الدبابات وقامت بذلك، لم يكن عندها أصلا تراث ثقافي، ولا هم ثقافي ولا سياسي. وصعودها على ظهور الدبابات جعلها تعتمد القوة. لا يوجد عندها أي هم فكري، ولم تشعر بضرورة تطوير فكرها وثقافتها بشكل عام. صعودها أعطاها شعورا بأن الذي يحسم الأمر والذي يحكم هو القوة. وهناك نخب بدأت تتفاعل مع القوة ولا تزال، ثم انتقلت بالعمل مع أجهزة الأمن والرهان على أجهزة الأمن.. واستمرت على قمع المواطنين، على قمع الحريات والحد من حرية التعبير حتى تستمر بالسلطة وتستمر بالوجود.. وجودها نفسه صار معاديا للثقافة. وصارت تشعر أنه حتى تبقى بالحكم يجب أن تلغي الثقافة، يجب أن تلغي الحرية، يجب أن تلغي المثقف الذي كانت هي قريبة منه أو كان بعض المثقفين قريبا منها. لذلك أنا كتبت منذ خمس عشرة سنة سلسلة من المقالات كان يجب أن تصدر في كتاب وحتى الآن لم تصدر. سميتها «محنة المثقفين العرب». المثقفون العرب، في الحقيقة، هم الذي كانوا وراء تشكيل الأحزاب القومية واليسارية.. وحتى الليبرالية. لكن حين وصلت تلك الأحزاب إلى السلطة كان المثقفون انفسهم ضحيتها الاولى والذين حرموا من كل فرصة، حتى للتعبير عن وجودهم، او حتى للتعبير عن آمالهم وأفكارهم. وسيطرت نخبة سياسية باسم الحزب وتحولت إلى نخبة بيروقراطية مرتبطة بأجهزة الأمن، همومها لا تتعدى ـ إلى حد كبير ـ مصالحها الشخصية وتأمين موارد أكبر وثروات أكبر.

نحن نقول: إن مصادرة حقيقية للفكر حصلت، مصادرة أيضا للسياسة فأصبح السياسيون دون فكر ودون سياسة عملية. هذه الحالة تفاجئني، مثلا من هم السياسيون العرب الذي يحاورون المثقفين؟ لا وجود لهم لا في محاورة المعارضة الديمقراطية ولا غيرها، لا تجدين غير أجهزة الأمن وقادة الأمن الذين أصبحوا الوحيدين السياسيين، فلم يعد هناك غيرهم! وإذا حرمنا السياسة من الفكر لم يبق هناك سياسة، لم يعد هناك سياسيون، ولا فكر، أصبح هناك قادة أجهزة ومسؤولو أجهزة وإداريون وبيروقراطيون هم الذين يتكفلون بإدارة البلاد. لذلك، حقيقة، فإن مجتمعاتنا تفتقر حتى إلى طبقة سياسية، لا إلى نخبة سياسية تدور بأوامر بيروقراطية، من قبل بيروقراطية عسكرية أو إدارية، وليس هناك سياسة. هذا يفسر تراجع أوضاع هذه المجتمعات.

الضغط على سورية

■ هناك قوى عالمية تخطط وتمارس ضغوطا على سورية، برأيك كيف يجب التعامل مع هذه القوى، وخاصة أن الشعب يعاني من ضغوط داخلية خانقة؟

● النظام في سورية يعيش أزمة سياسية عميقة، وهو يواجه الشارع بضغوط داخلية قوية جدا، كلما ازدادت عليه الضغوط الأجنبية، وبشكل خاص الضغوط الأوروبية والأمريكية. وقد حصل شعور عند الرأي العام، وخاصة المثقفين والمعارضة، أن هذا النظام القائم لا يريد أن يفتح أي حوار، لقد رفض بالفعل خلال الخمس سنوات الماضية أن يبدأ أي شكل من أشكال الحوار، رغم كل حسن النية التي أظهرتها المعارضة. ورفض حتى أن يقوم بأي إصلاحات تسمح للمثقفين أو للمعارضة بأن يعبروا عن أنفسهم بشكل ما من الحرية، وليس بحرية مطلقة. لذلك تزايد الشعور بأنه دون ضغوط خارجية من الصعب أن يقوم هذا النظام بأي تنازلات أو أن يتخلى عن الاحتكار المطلق للسلطة، والاحتلال المطلق للفكر والإعلام والدعاية إلى آخره. وأكثر من ذلك صار هناك شعور بأن هذا النظام لم يكن ليستمر لولا الدعم الخارجي، وبالتالي ما دام هو قائما على الدعم الخارجي، فإن تغير الدعم الخارجي له سيكون لصالح الحركة الشعبية. وليس هناك من سبب لرفض هذا الشيء. اليوم، بعد أربع أو خمس سنين من هذا الوضع، شعوري بأن الضغوط الأجنبية، والأمريكية بشكل أساسي، كانت نتائجها سلبية، بل أضرت بآمال التقدم والتحرر والإصلاح أكثر مما أفادت.

السبب أنها ارتبطت بأجندة استعمارية، أجندة إعادة علاقات الهيمنة والنفوذ في المنطقة. وكمثال كبير عليها هو احتلال العراق من قبل قوات التحالف الأمريكي والبريطاني. هذا أضعف إلى حد كبير، وما كان بالإمكان إلا أن يضعف معنى ومضمون الضغوط الأمريكية على النظام في سورية الذي له بشكل أساسي علاقة بلبنان أيضا. أما الأوروبيون فما عندهم أي سياسة منسقة للمنطقة. وكان واضحا أنهم غير قادرين على التأثير. وأنا من الناس الذين اقتنعوا بأنه لا بد من طلب من الأمم المتحدة بشكل رئيسي، كممثل للمجموعة الدولية التدخل بشكل أو بآخر، ليس كوسيلة للضغط وإنما من أجل فتح خطوط المفاوضات بين الأطراف السورية على مختلف اتجاهاتها. أنا أقول: أن يكون هذا النموذج للعمل الدولي على مستوى عالمي، ليس فيما يتعلق بسورية وحدها، ينبغي أن تكون هناك مسؤولية لدى الأمم المتحدة،

بدل أن تقوم بها الولايات المتحدة التي هي تقوم بالضغط وتعتبر نفسها وكأنها هي مسؤولة عن قيادة العالم ومسؤولة عن تطبيق الديمقراطية هنا في هذه البلاد أو في هذه المنطقة. نحن نقول إن الولايات المتحدة غير كفؤ وغير أهل بسبب سياساتها الاستعمارية حتى اليوم، بالنسبة لنا في فلسطين وفي العراق، فهي غير مؤهلة لأن تقوم بهذا الدور. المؤهل لأن يقوم بهذا هو مجموعة دولية في الأمم المتحدة تمثل دولا ليس لها مصالح استعمارية في بلادنا بشكل أو بآخر. وتحاول أن تضغط من أجل فتح مفاوضات بين الأطراف للوصول إلى تفاهم جديد من أجل فتح المجال السياسي في بلد مثل سورية، كما هو الحال في بلدان أخرى تعيش نفس الظرف. نحن في الظروف الراهنة وبقوانا المحلية غير قادرين على أن نفتح الحوار، وواضح أن السلطة فشلت في أن تخضع ولن تستطيع أن تخضع الشعب والرأي العام. وبنفس الوقت فإن المعارضة والمثقفين بقواها الضعيفة، في وجود نظام قائم على احتكار كل شيء، غير قادرة أن تفرض الحوار.

ولن تستطيع أن تفرض حتى التحويل التدريجي، وبأبطأ صورة ممكنة، على نظام يعتقد أنه مدجج بالسلاح قادر على قمع أي تحرك، ولا يسمح حتى اليوم باعتصام حتى عشرة أشخاص أو عشرين شخصا في ساحة عامة. فأنا أعتقد أن المسؤولية اليوم أصبحت دولية وينبغي أن نتوجه إلى الأمم المتحدة من أجل دفعها إلى رعاية حوار تحت إشراف ومراقبة وشهود دوليين بين الأطراف السوريين والمعارضة وأطراف المجتمع المدني التي تعاني من اضطهاد حقيقي ويومي من حرمان من أي شكل من أشكال الممارسة والحرية وبين أطراف النظام على قاعدة التحول إلى نظام ديمقراطي، وليس على قاعدة المشاركة واقتسام المنافع واقتسام السلطة، وإنما على قاعدة فتح النظام تدريجيا تحت إشراف الأمم المتحدة.

ما العمل؟

■ فشل النظام السياسي أدى إلى تراجع خاصة في سورية وفي المجتمعات العربية بشكل عام، ما هو المخرج وكيف يكون ترميم هذا المجتمع في رأيك، وأنت مفكر وباحث ودراستك في علم الاجتماع؟

● المهمة ليست سهلة أبدا. أنا باعتقادي أنه حصل تخريب حقيقي للمجتمع، تخريب حقيقي للنظم والمؤسسات الاقتصادية والسياسية والثقافية. تخريب بأي معنى؟ لم تعد هذه المؤسسات كلها تقوم بوظائفها، أصبحت كلها في خدمة السلطة، أصبحت كلها فاقدة للمعنى وفاقدة للنجاعة. النشاطات الاجتماعية تدول خارجها، القانون ليس هو الشيء الحقيقي السائد اليوم، وإنما العرف حل محل القانون كمثال. كيف يمكن أن نعود إلى الحالة الطبيعية؟ باعتقادي أن المطلوب اليوم ليس الانقلاب، بعكس ما كنا نتحدث بالخمسينيات والستينيات. المطلوب العودة إلى أن الإنسان يشعر بأنه إنسان له حريته، له حقوقه، وهو مساو للآخر، بعيدا عن الاضطهاد. العودة إلى الحياة الطبيعية، لا تتم في يوم وليلة، عملية بناء وإعادة بناء للمجتمع من جديد. هناك ثلاثة مستويات لإعادة البناء: المستوى الأول هو الأعمق وهو المستوى الثقافي، وضع المثقفين أمام مسؤولياتهم من أجل بناء ثقافي فعلا.. أن نعبر عن القيم، ننمي قيم الديمقراطية، قيم المساواة، قيم الإنسانية، في مقابل ما ينمو في هذا الخراب من قيم الطائفية، وقيم التعصب، وقيم العداء المشترك، وقيم غياب الثقة بالآخر، وقيم الشك والتشكيك بالنوايا والتخوين. نحن نعيش الآن ضمن ثقافة ضاغطة لأنها تبنت كل القيم السلبية، هذه مهمة لا يمكن أن تفرض بالقوة ولا بالقوانين ولا بالمراسيم. هذه أمور لا يمكن أن تحقق ثقافة. باعتقادي أن أخطر شيء حصل في مجتمعاتنا هو تخريب البنية الاجتماعية والاقتصادية. إن الذي يتحكم بالمجتمعات خلال التاريخ هو الطبقات التي تملك الوسائل، وسائل العلم والإنتاج والمعلومات والتوجيه، والوسائل اليوم هي رأس المال، فالذي يملك رأس المال يستطيع أن يبني مؤسسات ويبني صحافة ويبني جمعيات أهلية، كلها تمول من قبل الناس. رأس المال اليوم وقع في يد مجموعات ليس لديها ثقافة ولا سياسة ولا فكرة عن المجتمع ولا شاعرة أنها هي جزء من هذا المجتمع، وأن عليها مسؤوليات، حتى الإقطاعي كان يشعر أن عليه مسؤوليات. الفلاح الذي كان تحت سيطرته، كان يزوجه، يطببه، كان يراعيه، هؤلاء يشعرون أن المجتمع غابة يصطادون فيها كما يشاؤون ويهربون بصيدهم إلى الخارج. المهم أن تكون ثرواتهم في الخارج لا تمس، مصير المجتمع في النهاية لا يهمهم على الإطلاق. أسوأ ما حصل في مجتمعاتنا هو نوعية النخبة الاقتصادية، الطبقة المالكة لرأس المال التي تكونت في بلادنا، وتكونت في ظل سلطة احتكارية أو سلطة سياسية محتكرة، بعلاقة مشبوهة بين المال وبين السلطة.

أعتقد أنه على المدى المتوسط، هناك رأس المال في العالم العربي، وفي سورية بشكل خاص هذا عمل إلى تفكير: كيف نحول هؤلاء الوحوش الكاسرة التي ترى في المجتمع فريسة ولا تفكر أن هؤلاء مكونون من بشر وعندهم عواطف، وعندهم مشاعر، وعندهم حياة وأولاد ويفكرون بالمستقبل. كل واحد من هؤلاء الجشعين لا يفكر إلا بنفسه وأولاده.

كان في مجتمعنا الحرام والحلال، وكان فيه زكاة، وكانت هناك القيم الدينية التي تشجع الناس على أن يتواصلوا ويتراحموا، حتى هذا لم يعد موجودا. الوضع الراهن يؤدي إلى مزيد من التوتر الاجتماعي لا حدود له، كما يؤدي إلى خلق طبقة لا تهتم بمصير المجتمع، وإنما تقوم كالمضخة بأخذ وجمع رأس المال وتصديره إلى الخارج، وبناء عالمها خارج البلدان. وعندنا أمثلة كثيرة في سورية. كثيرون منهم سرقوا وهربوا بأموال الشعب، وكل يوم سوف يسرقون ويهربون لأنهم يخافون أن يظلوا في البلاد ويجيء يوم للمساءلة. إن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تتم بين المثقفين، ولكن يجب أن تطرح على إطار دولي، وأن يكون الموضوع على مستوى دولي ومؤسسات دولية، وأن يكون حوله حوار من أجل النظر في سلوك وتأهيل هذه الطبقة.

على مستوى أقصر، أعتقد أن العمل يجب أن يكون على مستوى سياسي، بالتأثير مباشرة على النخب السياسية الحاكمة. يجب أن يكون في إطار يتنظم في الأمم المتحدة لتحسن التأثير على هذه النظم وتفرض عليها الحد الأدنى من المعايير، كيف يجب أن تتعامل مع شعوبها، فاليوم أصبح العالم كتلة واحدة. لا يمكن لنخبة لأنها أخذت السلطة، بطريقة أو بأخرى، أن تمارس على شعبها قوانين الرق والعبودية ومنعه من أي شكل من أشكال التعبير عن رأيه والتعبير عن إرادته.

المعارضة السورية

■ هل تعتقد أن المعارضة التي تسعى إلى تحقيق الديمقراطية في سورية، تستطيع أن تصل إلى هذا المطلب ولو بمساعدة الأمم المتحدة؟ وهل يمكن للأمم المتحدة أن تتجاوب مع ذلك؟ وهل أنتم قادرون على تقديم ذلك المشروع إلى الأمم المتحدة؟

● نحن نقود تجربة جديدة تحتاج إلى تفكير وإنضاج، ولماذا لا تستطيع النخبة ومؤسسات المجتمع المدني في سورية وفي غيرها من البلدان أن تؤثر أو يكون لها جدوى فاعلة في عملية التغيير، وهي تشعر فعلا أن هناك اضطهادا وترفض أن يكون الأمر عن طريق الاحتلال العسكري كما حصل في العراق، وترفض أيضا تدخل الولايات المتحدة من أجل استخدام قضية الديمقراطية وترسيخ سياسات استعمارية وهيمنة وفرض الوجود الإسرائيلي على العرب كما تشاء إسرائيل. فنحن نريد حلا له علاقة مباشرة بتطوير النظم السياسية وتطوير علاقة النخب مع شعوبها وليس له مضاعفات تتعلق بالأمن الإقليمي والاستراتيجيات المحلية. فأنا برأيي أنه ينبغي أن نعمل بهذا الطريق ونستطيع فعلا، إذا أقنعنا كل منظمات المجتمع المدني وأحزاب المعارضة وقدمنا عريضة للأمم المتحدة تطلب رعاية حوار ومفاوضات بيننا وبين الحكم الراهن في سورية وبشهود دوليين من شخصيات محايدة، ليست شخصيات لها مصلحة خاصة في سورية، رجال أعمال كبار، نستطيع أن نفتح ربما ثغرة في دفاعات النظام وإصراره على رفض أي حوار مع مجتمعه.

■ يوجد ضعف وتشتت في المعارضة في سورية، هل من الممكن تنظيم هذه المعارضة أو تقويتها؟ وهل تستطيع أن تقوم بدورها في أن تكون فعلا عامل ضغط مؤثرا على المؤسسة السياسية لقبول الانفتاح على الشعب وتقبل بالتالي الدخول مع المعارضة في جو ديمقراطي؟

● المعارضة كانت ضعيفة ولا تزال بسبب الظروف السياسية التي تعمل فيها. نحن نعرف أنه ممنوع العمل السياسي ولا يزال ممنوعا بشكل رسمي. قانون الحزب الواحد هو قانون محدد، وبقانون الطوارئ اليوم ممنوع الاجتماع، حتى أربعة أو خمسة أشخاص غير قادرين على أن يجتمعوا مع بعضهم ليتناقشوا في مستقبل ومصير بلدهم. فإذاً، مفهوم لماذا المعارضة ضعيفة، ولكن شعوري خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وخاصة مع انحسار الآمال بأن هناك إرادة تغيير وإرادة اصلاح من قبل النظام، شعوري أن هناك نموا كبيرا للمعارضة. هناك نمو واسع جدا، حتى النظام لا يدركه. الشعب اليوم ثلاثة أرباعه معارضون، يعبرون عن معارضتهم، ولكنهم غير منظمين، وهذا النمو سوف يفرض منحى جديدا على المعارضة، سوف يغذيها بأفكار جديدة، وسوف يفرض عليها أيضا أن تخرج من الأطر التقليدية التي تعبر عن الانقسام والتشتت. من أين يأتي الشتت؟ من انعدام رؤية واضحة، ضغوطات خارجية قوية جدا تقع على الأفراد من أجل منعهم من التفاهم والتواصل مثلما يحصل في كل البلدان الشمولية، والنظم الاستبدادية. الآن أعتقد أن سياسة القمع وسياسة الحد من الحريات المبالغ فيها وصلت نهاياتها، وبعد أن بدأت الناس تفقد الأمل بالاصلاح الموعود ولم يحصل، وكل حديث عنه كسب للوقت، لذلك فالسنوات القادمة وربما الأشهر.. وقريبا جدا سوف تعطى المعارضة السورية قوة دفع كبيرة.

■ سورية أصبحت تعاني اليوم من الطبقة السياسية وشريكتها في المكاسب والامتيازات طبقة التجار والمستفيدين الذين لا يهمهم إلا الربح وتأمين مصالحهم، بينما بقيت غالبية الشعب يؤمنون حاجاتهم ومتطلباتهم على هامش هاتين الطبقتين بكل ما تتمتعان به من تسلط ونهب واستغلال.

● هؤلاء يريدون أن يجعلوا من الشعب شحاذاً ليس له حقوق، لا أحد يعترف له بحقوق، بل يمنون عليه حتى إذا أعطي خمسة أو عشرة بالمئة، وهم يعطونها وكأنها إكرامية وما شابه.. وعليه أن يتقدم بطلب واستجداء من أجل نيلها، يجب أن يتوسط عند هذه الطبقة المشتركة، والتي هي المالكة للسلطة السياسية ورأس المال. إنهم عبارة عن أسر وعائلات ومجموعات من بين رجال الأعمال والتجار الكبار والمسؤولين، وقد أصبح أبناء المسؤولين هم أنفسهم التجار. فعلا هذا الالتقاء الجشع بين السلطة السياسية وبين السلطة المالية (شلّح.. بالتعبير العامي)، شلح الشعب كل حقوقه، وشكل مركز قوة هائلا بأنه لا أحد يستطيع أن يقف أمامه، وأن الشعب صار تماما كما كان في فضاءات القرون الوسطى. وهؤلاء ينصبون أنفسهم كأسياد ويتصرفون كذلك، ويمنون على الناس كأسياد، وهم الوحيدون القادرون على أن يؤمنوا لهذا أو ذاك منافعه أمام تنازلات يمكن تكون معنوية. إنهم يريدون التبعية المطلقة والمحسوبية والزبائنية، أو مقابل شيء عيني مثل رشوات يقطعها المواطن من دمه ولحمه ومن حياته. نحن فعلا أصبحنا في نظام ألغى كل ما كسبته المجتمعات الحديثة من نظم كنظم القانون، نظم المواطنة، نظم الحرية، نظم المساواة بين المواطنين والأفراد، هذا كله ألغي تماما لصالح تكوين أرستقرطية مشتركة، وكل ما عدا ذلك هم أتباع تشكل منهم المليشيات التي تضرب الشعب أيضا والتي يمولها هؤلاء. لذلك أنا أقول إننا بالفعل فقدنا، بالتفاهم العميق بين السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية، فقدنا كل مكتسبات الحداثة بما فيها الفكرية، بما فيها قيم المجتمعات نفسها. وأنا، مثلا، حتى أكون نافعا يجب أن أتصرف كزبون وأتخلى عن كرامتي، وأتخلى عن حريتي، وأتعامل مع صاحب النفوذ باعتباره السيد المطاع، وأبجله وأكرمه حتى أستطيع أن أضمن البقاء لنفسي. عدنا تماما إلى المجتمعات الاقطاعية التي كنا نناضل ضد بقاياها، لكن عدنا إليها بشكل أصيل وكامل. والحداثة بدأت عندما فرض الاستقلال بين السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية، وقلنا إن الدولة تعبر عن الشعب ولا تعبر عن مجموعة المصالح القائمة. عندما تعود الدولة لتكون هي التعبير المباشر والدقيق عن مجموعة المصالح للطبقات المالكة، انتهت كل الدولة الحديثة.

برهان غليون

العلاقات السورية ـ اللبنانية

■ كيف تنظر إلى مستقبل لبنان وسورية ومن خلال السياسة الدولية في المنطقة والضغوط الخارجية، ولأهمية موقعهما بعد احتلال العراق؟

● هناك على المدى المتوسط معركة كبيرة نخوضها. نحن في مخاض حقيقي. أنا لا أعتقد أننا سوف نستسلم للظروف التي نحن فيها. طبعا هذه ظروف لا يمكن لأي شعب أن يقبلها. هذه الظروف الاقطاعية، ومن أجل تغييرها، هناك معركة قوية جدا بدأت من قبل ونحن نعيشها وهي بتصاعد واستمرار، ومعركة الديمقراطية جزء منها، ليست كلها معركة الديمقراطية السياسية، هي معركة إعادة تجديد الثقافة، تجديد المجتمع، النهوض بثقة المجتمع، وثقته هو بنفسه، تكوين الفرد المواطن من جديد بعد أن تم إلغاؤه. نحن شعب نرفض التدخل الخارجي ولكن فشل المؤسسات السياسية كان سببا لهذه الضغوط الخارجية، كما وصلنا إلى هنا بسبب تخلف البنى الاجتماعية وغياب الفردية القوية والمسؤولية. ولكن على المدى المتوسط، هناك معركة، وهناك معاناة وصعوبات بلا شك على المدى الطويل. إن ما يحصل من ظلم واضطهاد اليوم سوف تكون نتائجه ثورة تحرر حقيقية في العالم العربي.

■ انشقاق خدام بعد ثلاثين سنة من مشاركته، كيف تنظر إلى هذا الحدث؟ هل يمكن أن يكون بإيحاء خارجي أو هو بفعل طمعه في العودة والسيطرة من جديد؟

● أنا أتصور أن انشقاق خدام هو بداية تصدع النظام القائم وتضارب أطرافه. طبعا عبد الحليم خدام هو جزء قائم من نظام، بل هو أحد مؤسسي النظام، أحد أطرافه الرئيسية وليس طرفا ثانويا فيه. وتحليلي أن انشقاقه دليل على أن النظام نفسه بدأ يفقد قدرته على تحقيق أهدافه بين أطرافه المختلفة، هذا يعني أن قاعدة السلطة بدأت تضيق لتصبح قاعدة عائلية. هذا جزء من تفكك النظام. ماذا يستطيع خدام أن يفعل؟ هذا كله متوقف فعلا على تطور المعارضة. وإذا كان هو نفسه قادرا أن يخرج من جلده، كما يعد في بعض الأحيان.. وإلا فسوف يبقى كما هو حتى الآن، لم يقدم أي تقييم أو نقد ذاتي أو أي اعتذار عما حصل. كان عنده فرصة، على الأقل، أن يقنع المعارضة لو أنه اعترف وقام بالحد الأدنى من المسؤولية عما حصل. ومحاولة التبرؤ منها – كما قال – بأنه لم يكن مسؤولا، هذا أخطر شيء يقوله مسؤول ونائب رئيس دولة وعضو بالقيادة القطرية، يقول إني لم أكن مسؤولا ولكن كنت فقط وزير خارجية، هذا شيء غير مقبول.